الأهرام

المصدر :

التاريخ :

خطوة صحيحة على طريق صحيح

الدكتور تركي الحمد

لو ان العقلية «البراغماتية» السائدة هذه الأيام عند القيادات العربية عامة والقيادة الفلسطينية خاصة، لو كانت هذه العقلية موجودة منذ بدايات القضية الفلسطينية، لكانت دولة فلسطين الديموقراطية على كامل تراب فلسطين حقيقة ملموسة هذه الأيام، ولكن كلمة «لو» لا تقدم ولا تؤخر وليس من الحكمة النظر الى الوراء دائما والتحسر على ما فات، اذ ان ما فات قد فات ولا امل في ارجاع دولاب الحياة الى الوراء على اية حال. كما ان الانسان، من ناحية أخرى، لا يتعلم ولا يحصل على الحكمة الا من خلال التجارب والكثير منها. وقد كان المأخذ على العرب عموما (نخبا وقيادات وجماهير) انهم لا يتعلمون من اخطائهم ولا يستفيدون من تجاربهم، الا انه يبدو ان هنالك «انعطافا» ذهنيا هذه الايام يجعلنا نتامل خيرا وننظر الى المستقبل نظرة تفاؤل وامل بعد ان كادت الاعناق منا تتصلب من شدة الالتفات الدائم الى الوراء والوصول المتاخر دائما الى ساحة الاحداث الجارية والمتفاعلة.

نقول مثل هذا الكلام وذلك بمناسبة الاتفاق الفلسطيني ـ الإسرائيلي الأخير حول مسالة الحكم الذاتي والذي ستكون بداياته من غزة واريحا وصولاً الى كامل الاراضي المحتلة، ومن ثم اذا سارت الأمور بشكل تطوري تدريجي، قيام الدولة الفلسطينية الكاملة. هذا الاتفاق، وهذا الاعتراف المتبادل بين اسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية قد يكون صدمة عاطفية ونفسية للكثير من العرب، ان لم يكن كلهم، الذين تربوا ومنذ الصغر على الرفض المطلق لاسرائيل والوجود اليهودي المسيطر في فلسطين، وعلى ان اسرائيل هي العدو التاريخي للأمة العربية وان كل مصائب وازمات ومشكلات العربي لا بد ان تكون اسرائيل عاملاً مشتركاً فيها ان لم تكن هي مصدر كل ذلك. كل هذا مدرك ومفهوم ويحتاج الى سنوات عديدة جديدة من التربية واعادة التربية والتنشئة واعادة التنشئة وذلك من اجل خلق ثقافة سياسية جديدة تاخذ المتغيرات المستجدة في الاعتبار لا من اجل نشر ذهنية الخنوع والاستسلام، كما يقول بذلك اصحاب الرفض المطلق السلبي الذين لا يطرحون البديل العملي، ولكن من اجل ايجاد ذهنية او عقلية جديدة لا تكون اسيرة شعار «كل شيء او لا شيء» بل منطلقة من مبدأ «اي شيء خير من لا شيء»، بالاضافة الى القناعة بان الانجازات الكبيرة لا تاتي دفعة واحدة بل انها خاضعة للتطور التاريخي الذي يعني وبكل بساطة ان الطريق مهما كان طويلا انما يجتاز خطوة خطوة ولا يمكن القفز فوقه دفعة واحدة كما هو مضمون شعارات اصحاب الشعارات. والخطوة خطوة هذه انما تكون بدايتها الخطوة الأولى التي نشاهد القيام بها هذه الأيام في ما يتعلق بالقضية الفلسطينية.

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

وعلى رغم المساحة الضئيلة التي سوف يمارس عليها الفلسطينيون الحكم الذاتي، فان آثار ذلك سوف تتجاوز وبشكل كبير مجرد المساحة. فالمسالة اكبر من قطعة ارض واوسع من مجرد حكم ذاتي مهما كان ضئيلا. ان الذي حدث انما بشكل انعطافا بل حتى نوعاً من القطيعة كنا في اشد الحاجة اليها وذلك في ما يتعلق ببنية العقل السياسي العربي. انه نوع من القطيعة مع العقل الدوغمائي وبداية التعامل مع العقل البراغماتي الذي يحاور ويناور، ياخذ ويعطي، يتحرك ويتكيف وذلك من اجل الوصول في خاتمة المطاف الى تحقيق الاهداف، وبعكس العقل الدوغمائي في التعامل مع الامور الذي يرى ان تتحقق الاهداف دفعة واحدة وبشكل كامل،

اما كيف يكون ذلك فانها مسالة مسكوت عنها لدى هذا العقل الذي يعيش اسير ذاته وليس في تداخل مع الواقع والآليات الملموسة لهذا الواقع. اذا كان هذا الانعطاف او القطيعة في العقل السياسي العربي هو النتيجة الوحيدة لما يجري هذه الايام فان ذلك بحد ذاته كاف ومرض، اذ انه يعني ان العرب قد خرجوا فعلا الى معمعة الحياة وليسوا اسرى قوالب ذهنية جاهزة وثابتة ساكنة كما كانوا بشكل عام طوال سنوات تاريخهم الحديث والمعاصر. فهذه القطيعة «الابستمولوجية» في مجال العقل السياسي العربي، والتي تجد بداياتها في ما يحدث هذه الأيام بالنسبة للقضية الفلسطينية، نقول: ان هذه القطيعة لن تبقى حكرا او حصرا على المسار السياسي للقضية الفلسطينية بل ستتجاوز ذلك الى مختلف اوجه الحياة العربية سواء في السياسة او الاقتصاد او الاجتماع او الثقافة او غير ذلك. هذه الاوجه التي اسنت من طول السكون وديمومته قد اتاها حجر صغير في شكله كبير في اثره، اذ ان الدوائر التي سوف يحدثها هذا الحجر الصغير ستكون اكبر واكبر مما يحطم السكون ويزيل الاسن. قد يسمي البعض هذه التغيرات والانعطافات الحادة في الحياة العربية المعاصرة بانها نوع من السقوط في هوة الخنوع والاستسلام وغير ذلك من مفردات ايديولوجية لا ترى الا ذاتها من خلال ذاتها، الا اننا نسميه خروجا من التابوت الى الحياة الفعلية حيث الحركة جزء لا يتجزأ من هذه الحياة.

بالاضافة الى هذا الاثر «البنيوي» ان صح التعبير، لما يحدث هذه الايام من تطورات، فان هنالك آثاراً اخرى مباشرة سوف تهز مسلمات عربية من جذورها وذلك في ما يتعلق بكافة اوجه الحياة العربية والوجه السياسي بصفة خاصة. فالعلاقة العربية - الإسرائيلية والتي كانت طوال الفترة الماضية عبارة عن صراع «صفري»، بمعنى انه لا وجود لطرف دون زوال الطرف الآخر، ستتحول، اي هذه العلاقة، الى نوع من التنافس بين الطرفين وتجاوز مسالة الصراع. والتنافس في حالتنا هذه هو نوع من التحدي الحضاري بين الطرفين، يعني بكل بساطة من هو الطرف القادر على استيعاب الطرف الآخر ومن ثم الهيمنة على مقدرات ومستقبل المنطقة وبشرها. فالسلام الذي يرى بداياته هذه الأيام، سيفرض نوعاً من التحدي الحضاري على العرب ويدخلهم منافسة من نوع جديد تدور حول العلم والتكنولوجيا والاقتصاد والثقافة. هذا التحدي الجديد عبارة عن اثر ايجابي من آثار ما يحدث وسيحدث من حيث انه سوف يجعلنا، نحن العرب، وجها لوجه امام الحياة الفعلية وليست تلك التي نتخيلها ولا تدور الا في الاذهان. فاما ان ننجح في مثل هذا التحدي ونهيمن حضاريا ونكسب المنافسة، واما ان يطوينا النسيان كامة كما طوى غيرنا من امم وذلك في حالة الفشل. والفشل والنجاح منوطان اولا واخيرا بالارادة والقدرة على مواجهة التحدي الجديد، وكل ذلك بدوره منوط بقدرتنا على التعامل مع المتغيرات واكتساب كل جديد وحديث دون خوف او وجل من ان نفقد شيئا ما هنا او هناك، اذ اننا ان لم نفعل ذلك فان المصير هو فقدان كل شيء وليس شيئا ضمن اشياء، والمسالة كما نكرر دائما متعلقة بنا اولا واخراً. ولا ريب ان البعض من اصحاب النظرة التشاؤمية او المسكونين بهاجس المؤامرة الدائمة والاستهداف المستمر سوف يقولون ان المسالة محسومة من الاساس وان خيار غزة - اريحا ليس الا بداية الهيمنة الاسرائيلية الشاملة على المنطقة ومن ثم اعلان الامبراطورية الاسرائيلية ومن ورائها الغرب المتامر دوماً وابداً. وهذه في الحقيقة هي النظرة الاستسلامية والموقف الانهزامي اذ انها تعبر عن عدم ثقة بالنفس اولا واخيرا، من حيث عدم قدرة هذه النفس على العيش الا في جو من التقوقع والانعزال ونشوة الشعار وليس في جو من التحدي الحضاري الذي يصنع الامم او يدمرها وذلك منوط كما قلنا سابقا، بالموقف الذي تقفه الأمة تجاه ذاتها بغض النظر عن حديث المؤامرة والاستهداف وتلك الاصابع التي تلعب في الخفاء. بمعنى ان المطلوب في هذه المرحلة من التنافس الحضاري بين العرب واسرائيل هو الاستيعاب المدني، كما ذكرنا ذلك في مقالات سابقة، بعد فشل الاستيعاب العسكري والسلطوي. فاي الطرفين سوف ينجح في هذا الاستيعاب؟ هذا هو السؤال الذي يوجد جوابه في مدى قوة المقومات الذاتية لدى الطرفين والتي تجعل من طرف ما الاكثر قدرة على مواجهة التحدي ومن ثم النجاح في المنافسة.

غير ان اهم نتيجة سياسية «فرعية» سوف يفرزها السلام القادم والتي قد تغير الكثير من «الحقائق» السياسية في المنطقة هو سحب بساط الشرعية القديم من تحت اقدام بعض النظم السياسية العربية والبحث عن مصادر جديدة للشرعية قد تكون في نتائجها اكثر ايجابية، وذلك في ما يتعلق بالانسان العادي او المواطن البسيط. لقد اعترف الفلسطينيون بالدولة العبرية في فلسطين وحق اسرائيل في الوجود والحياة، كما اعترف الاسرائيليون بالشعب الفلسطيني وقيادته الممثلة له وبالتالي اصبحت «قضية العرب الأولى» قضية فلسطينية - اسرائيلية خاصة الى حد بعيد تقوم على «التفاهم» المباشر بين اصحاب القضية انفسهم من فلسطينيين واسرائيليين. مثل هذا التطور هو عبارة عن تقويض للهيمنة العربية السابقة على القضية، من حيث اعتبارها قضية عربية في المقام الاول، وما تفرضه هذه الهيمنة من واجب عربي في التحرير. من هذا المنطلق، اي الواجب العربي في التحرير، قامت انقلابات واتت قيادات باسم تحرير فلسطين وطرد اليهود من ارض الاجداد، ومارس اصحاب السلطان هؤلاء ما يخطر على البال وما لا يخطر من سياسات باسم فلسطين والقضية العربية الأولى. عسكرة المجتمع وكم الافواه وتكديس السلاح على حساب قوت المواطن البسيط وهيمنة الأمن واجهزته وغير ذلك كثير تم باسم القضية واسم التحرير والمعركة. وها هو قرار القضية يرجع الى اصحابه المباشرين، وها هي ذات القضية في الطريق الى الحل، فماذا سيكون موقف اولئك الذين وصلوا الى السلطة باسم هذه القضية؟

للحديث بقية إن شاء الله

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية